هيجل والرومانسية

سهيلة علي جـواد
مدرسة مساعـدة
كلية الآداب ـ جامعة بغـداد

شهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر حركات فكرية شملت أنحاء عديدة من أوربا تناولت نواحي علمية وسياسية وأدبية . هذه الحركات غيرت الأطر الفكرية القائمة آنذاك ، فقد سيطر « كانت » على فكر القرن التاسع عشر ولعبت الرومانسية دوراً كبيراً في توجية الفلسفة الحديثة ، وهكذا تعاون كل من « كانت » والرومانسية على جعل فلسفة القرن التاسع عشر ذات صيغة تركيبية أدت الى ظهور نظريات فختة وشيلنج وهيجل المثالية . وكان للمذهب الوضعي الذي ظهر في فرنسا صداه عند جون ستيوارت مل في انجلترا ، وأدى ظهور النظرية التطورية الدارونية إلى أن تكون الأساس العلمي للنظرية الهيجلية الرومانسية في التطور (١) . وبذلك ساد الحياة الفكرية في القرن التاسع عشر طابع فلسفي اتصف بثورية عميقة ـ ضد التقاليد الفكرية السائدة سواء في الأدب أم السياسة أم الاقتصاد ـ بزعامة الرومانسية والعقلانية (٢).

وكنتيجة حتمية لتضارب التيارات الفكرية في بداية القرن التاسع عشر ظهرت مدارس فكرية مختلفة طرحت أفكاراً متباينة ومتعارضة ، ففي مجال الفن مثلا كان

---

(١) بوخينسكي : تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا ، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي ، ص ٣١ ومابعدها ، مؤسسة الفرجاني ـ طرابلس ـ ليبيا .

(٢) برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة د . محمد فتحي الشنيطي ج ٣ ، ص ٣٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ .

الخلاف حول أيهما المهم في العمل الفني ، الشكل أم المضمون ؟ ومن هذه المدارس الرومانسية وحتى التعبيرية – التي كانت غايتها التعبير عن فكرة غالبا ماتكون فلسفية بحيث يطغي المضمون على الشكل أو بالأحرى يكون للمضمون المركز الأساس في العمل الفني وللشكل المكان الثانوي ، أما المدارس الأخرى فقد كان موقفها مناهضاً حيث أولت اهتمامها وعنايتها الناحية الجمالية ، واعتبرتها العنصر الأساس في العمل الفني ، ولم تعط مثل هذه الأهمية للمضمون فإما أن يطغى الشكل على المضمون أو بتساوى الأثنان .

هذه سمات عامة تميزت بها الفترة الأولى من القرن التاسع عشر ، عاصرها هيجل وتأثر بجوانب عديدة منها . والذي يعنينا هنا بيان مدى التجاوب أو عدمه بين هيجل والرومانسية ، لذا ستكون المحاولة الأولى ايضاح جوانب فلسفة الجمالية هيجل مع ذكر أوجه التقارب أو التباعد بينه وبين الرومانسية .

ولد هيجل عام ١٧٧١ – ١٨٣٠ أي انه عاصر الحركة الرومانسية – التي ظهرت تاريخياً في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر – التي امتدت الى الأدب والفن متأثرة برومانسية القرون الوسطى ، هذه الحركة اعتبرت ثورة على القيم الأخلاقية والجمالية السائدة آنذاك . وعلى الرغم من انها استمدت اصولها من روسو إلا انها كانت ألمانية المنشأة .

والرومانسية ضد الكلاسيكية ، وضد العقلانية ، من خصائصها المميزة تأكيدها على الفردية أو الذاتية ، والحرية ، التلقائية والدقة في التعبير ، الخيال الخلاق ، العبقرية والالهام ، الاستغراق في الطبيعة والادراك الذاتي لها ، أهمية العاطفة والوجدان وأخيراً استعمال الصور الرمزية ، أشهر دعاتها من الفلاسفة « فختة ، شيلنج ، هيجل ، شوبنهاور وهؤلاء يركزون على بعض القضايا التي منها التأكيد على الحدس والحرية والتلقائية وفكرة اللانهاية » (٣) ومن دعاتها أيضاً نوفاليس ، جيوم شليجل ، وفردريك شليجل ، جان جاك روسو ، فكتور هوجو ، بليك ، شيلي ، بايرون وغيرهم .

---

(٣) د . جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ج ١ ، ص ٦٢٨ ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٧١ .

نظرية هيجل الجماليـــة

فلسفة الجمال الهيجلية تعبير عن تطور الوعي البشري ، كما انها نظرية لتاريخ الفن ، خضعت لمنهج جدلي ، ورسمت نسقاً فنياً متدرجاً عبر التاريخ الحضاري للجنس البشري ، وأعطت قيمة كبيرة للمضمون الفكري الذي حدد انواع الفنون . ولقد عبر تاريخ هيجل التصنيفي للفنون عن مظهر من مظاهر النظرية العامة للتطور الكوني .

تبدأ فلسفة هيجل بالفكرة التي هي مبدأ الحقيقة والوجود حيث يعرفها على الشكل التالي : « الفكرة هي الجوهري والعام ، وهي المادة المطلقة — غير الحسية بل هي فهم العالم ، بيد أن الفكرة في حال تعريفها تعريفاً أوضح وأدق ليست جوهراً وشمولية فحسب بل هي ايضاً وحدة المفهوم وواقعه ، المفهوم المطروح بما هو في قلب موضوعيته والفكرة مبدأ الحقيقة كلها » (٤) .

ان فلسفة هيجل جمع بين المنطق والوجود والتاريخ ، مهمتها ابراز دور العقل وفاعليته فينا وفي الأشياء من حولنا ، هذا العقل الذي ينبث في العالم كله كله معبراً عن الفكرة المطلقة التي تستوعب في داخلها كل شيء ، الفرد ، الحياة ، التاريخ وبعبارة أخرى أن فلسفة هيجل تريد أن تكون عقلا للحياة البشرية (٥) .

وحين ربط هيجل كل نشاط بالعقل غدت الحقيقة النهائية عنده هي العقل أو الروح ، ولكي يمكن ادراك هذه الحقيقة يصبح لزاماً على الوعي أن يتطور وينتقل عبر مراحل متعددة تشمل الروح الذاتي ، والروح الموضوعي والروح المطلق كما أوضحها كتابه « فينو مينولوجيا الروح » .

المرحلة الأولى التي يعبر عنها « الروح الذاتي » متعلقة بالوعي الفردي أو موقف الانسان تجاه العالم الخارجي ، الانسان الذي يمثل صورة من صور

---

(٤) هيغـل : فكرة الجمال ، ترجمة جورج طرابيشي ، ص ٧٨ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨ .

(٥) هيبوليت ، جان : دراسات في ماركس وهيجل ، ترجمة جورج صدقني ، ص ٧ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧١ .

الحياة الفكرية عبر التاريخ البشري ، فهو بمثابة البؤرة التي تتمركز فيها كل خبرات عصره . والوعي في هذه المرحلة يتدرج من المباشرة ويمر بمرحلة الفهم والوعي الذاتي إلى ان ينتهي بمرحلة العقل حيث يدرك أنه أصبح الذات والموضوع في آن واحد فيصبح مايطلق عليه بالفكرة الشاملة .

« الروح الموضوعي » يمثل المرحلة الثانية لتطور الوعي ، فالروح هنا تعبر عن اجتماع الفكر والوجود ، أو الذات والموضوع حين تكشف عن حقيقتها في الطبيعة التي تغدو نقيضاً لها ، فالطبيعة هي تجسيد خارجي أو هي المظهر الخارجي للفكرة . كما ان الفكرة تكشف عن ذاتها في التاريخ لتعبر عن الواقع جوهرياً ممثلا بمراحل جدلية ثلاث هي اليونانية والرومانية والجرمانية .

أما المرحلة الثالثة أو المرحلة النهائية التي يصل اليها الوعي فهي المرحلة التي يتم فيها التأليف بين الروح الذاتي والروح الموضوعي لتحقيق وعي أعلى . فالمطلق هو المرحلة الأخيرة التي يصل اليها الوعي في تطوره ، كما انه يحوى كل تلك المراحل التي مر بها الوعي ابتداء من الروح الذاتي وانتهاء الى الروح المطلق .

فالروح المطلق يمثل الحقيقة الكلية لاباعتبارها ذاتية خالصة ولاباعتبارها جوهراً موضوعياً بل باعتبارها تلك الوحدة الحية التي تجمع بينهما ، فالمطلق يمثل العالم كله كما يمثل التطور المتحقق في العالم وفق الحركة المستمرة والصيرورة الدائمة ، حركة الجدل التي تفترض الانتقال بين المتناقضات . . فالعالم هو الفكر ، والفكر هو وجود هذا العالم ، والمطلق يحوي الوجود والفكر حيث يتجلى في الفن والدين والفلسفة .

والفن باعتباره معبراً عن الفكرة ومجسداً لها فهو بهذا المفهوم يرتبط بالمطلق باعتباره الفكر المنبث في العالم .. وعندما نتحدث عن تطرر الفنون عند هيجل فانما نتحدث عن تطور الفكرة وتنوع تشكلها حسياً وعينياً لذلك كانت غاية الفن التعبير عن المطلـق .

نظرية هيجل في الأنماط الفنيـــة :

الجمال هو التجلى الحسي للفكرة ، أي أن الفن هو تحقيق الفكرة عن طريق الشكل . فالفن اذن يتعامل مع الفكرة والمادة المظهرة لهذه الفكرة أي بمعنى آخر المضمون والشكل . والمضمون عند هيجل يتمثل بالفكرة أو الروحانية وهو الذي يحدد النمط الذي يظهر فيه . فنمط الفن تحدده العلاقة القائمة بين المضمون والشكل أي الكيفية التي تتجسد بها الفكرة وصولا للتعبير عن المطلق .

« ومادامت مهمة الفن تكمن في وضع الفكرة في متناول تأملنا في شكل حسي لافي شكل الفكر والروحية المحضين بوجه عام ، ومادام هذا التمثيل يستمد قيمته وشرفه من التطابق بين الفكرة وشكلها المنصهرين معاً والمتداخلين واحدهما في الآخر فأن نوعية الفن ومدى مطابقة الواقع الذي يمثله لمفهومه منوطان بدرجة الاتحاد والانصهار بين الفكرة والشكل ، إن هذه المسيرة نحو التعبير عن الحقيقة الأسمى فالأسمى والأكثر فالأكثر توافقاً مع مفهوم الروح هي التي تقدم المؤشرات المتعلقة بتقسيمات علم الفن » (٦) .

وعلى اساس من تجلي الفكرة حسياً وتآلفها مع الشكل الخارجي وبالتوازي مع التطور الحاصل في المضمون الذي يحدث تطوراً في الشكل الذي يظهر فيه ذلك المضمون عندئذ تصبح الفروق في الأشكال الفنية معتمدة على فروق العلاقات القائمة بين المضمون والشكل . فتاريخ الفن الذي وضعه هيجل يعتمد على مدى التآلف بين المضمون والشكل وقد قسمه الى أنماط ثلاثة :

١ — النمط الرمزي .

٢ — النمط الكلاسيكي .

٣ — النمط الرومانسي .

---

(٦) هيغـل : المدخل إلى علم الجمال ، ترجمة جورج طرابيشي ، ص ١٢٦ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

١ – النمط الرمزي

الفكرة في هذا النمط ليست متعينة ، وليست واضحة ولامحددة ، أما الشكل الذي تتجلى فيه فليس بشكلها الحقيقي ، إنها فكرة تبحث عن شكلها ، فالشكل هنا خارجي بالنسبة للفكرة وغير مطابق لها فالعلاقة بينهما تمثل علاقة تنافر وعدم أئتلاف ، فالمضمون يعبر عن اللامتناهي ولايجد الشكل الذي يتكيف معه ، ويعتبر الفن الشرقي معبراً عن هذا النمط وخير فن يمثل هذا النمط هو فن العمارة .

٢ – النمط الكلاسيكي :

نعلم ان الفكرة عند هيجل متطورة ، وهي تسعى دائماً للبحث عن الشكل الخارجي المناسب لها ، ويعتبر الفن الكلاسيكي فن التطابق الحر بين الشكل والمضمون . فالتطابق والتلاؤم بينهما ليس تطابقاً وتلاؤماً شكلياً ، انه مضمون وجد الشكل الملائم له . غير ان هذا التطابق محدود لأن الروح لايغدو محسوساً الينا إلا بقدر مايتجسد في الانسان ، لذلك تسعى الفكرة للتخلص من محدوديتها إلى الانفصال عن الشكل والعودة إلى الرمزية لكنها عودة تعتبر تقدماً في الوقت نفسه ، ويمثل فن النحت هذا النمط .

٣ – النمط الرومانسي :

تسعى الفكرة في هذا النمط للارتقاء الى مستوى أعلى لذلك صور هيجل ولادة الفن الرومانسي بانفصام الوحدة بين الواقع والفكرة . فلقد كانت الفكرة – في النمط الكلاسيكي – بوصفها داخلية مطلقة لاتستطيع التعبير عن ذاتيتها بحرية ، فهي حبيسة في أسر الشكل الجسماني لذلك كانت تحاول فك هذا الأسر والقضاء على الائتلاف القائم بينها وبين الشكل .

فالرومانسية تعبر عن الفكرة وقد هجرت تمثيلها الخارجي الحسي غير مبالية بمادية العالم الخارجي وتصبح وكأنها أدركت أعلى درجات كمالهافواقعها هو ذاتها ، أي انها اصبحت الذاتية الواعية لذاتها . فالذاتية والباطن الروحاني يمثلان مضمون الرومانسية .

إن الجانب الحسي يصبح شيئاً ثانوياً بالنسبة للفكرة ، ويغدو الفن معبراً عن النفس ويعامل العالم الخارجي بعدم الاكتراث .

« في التطور الثالث يظهر الروحي بصفته روحياً وتكون الفكرة حرة ومستقلة والهيمنة هنا انما هي للمعرفة ، للعاطفة ، وبالتالي للفكرة ، للنفس حين يدرك الروح حالة يمكنه فيها أن يكون لذاته ، يتحرر من التمثيل الحسي . الحسي اذن بالنسبة الى الروح شيء لااكتراثي ، عابر لا أساسي ، والنفس ، الروحي بما هو كذلك هو الذي يعطي دلالتـه » . (٩) .

إن الروح بشكل الذاتية اللامتناهية للفكرة .. والفكرة لاتوجد وفق حقيقتها إلا في الروح .. والعالم الباطن هو الذي بشكل مضمون الرومانسية ، فالذاتية هي أساس الفن الرومانسي .

الفكرة في هذا النمط تكون روحانية لاتأتلف أو تنسجم مع الشكل الخارجي إنما انسجامها يكون مع ذاتها ، فالعلاقة بين الشكل والمضمون تصبح علاقة تنافر وعدم تلاؤم وليس معنى التعارض الحاصل بين الشكل والمضمون في النمط الرومانسي عودة أو تراجع إلى النمط الرمزي بل ان هذا التعارض يعتبر تقدماً في وعي الفكرة بذاتها وتعبيرها عن ذاتيتها غير مبالية بالعالم الحسي الخارجي . وتعتبر فنون التصوير والموسيقى والشعر هي الفنون المعبرة عن النمط الرومانسي.

وبطغيان الذاتية في هذا النمط يصبح الفن في مرحلة متسامية بالوعي لادراك الحقيقة فيتخلى عن مكانه ليفسح المجال أمام الدين والفلسفة للتعبير عنالروح المطلـق .

ويضع هيجل الفنون في نظام نسقي متدرج خاضع لنظريته في الأنماط الفنية الثلاثة ، فيبدأ بفن العمارة ممثلا للنمط الرمزي ثم فن النحت ممثلا للنمط الكلاسيكي

---

(٧) هيغـــل : المصدر السابق ص ١٣٢ .
(٨) هيغـــل : المصدر السابق ص ١٣٥ .
(٩) هيغـــل : المصدر السابق ص ١٤١ .

أما الفنون الذاتية وهي التصوير والموسيقى والشعر فهي الفنون المعبرة عن النمـــط الرومانسي ويكون الشعر اكثرها تحرراً من المادة .

هدف الفـن :

يسعى الفنان في عمله الفني إلى اظهار مضمون خاص ، والمضمون عنـد هيجل يعني مضمون النفس والروح ، فهدف الفن أن يكشف للنفس عن كوامنها من مثل حقيقية سامية وجليلة . فالفن يكشف عن الخبرات الذاتية والتجارب الواقعية كما يكشف في الوقت نفسه عن خبرات الآخرين . وبما ان مضمون الفن روحاني فله تأثير كبير في التطهير والانعتاق من العواطف المركزة ومكافحة الأهواء وقهرها . وهكذا يقال : إن للفن هدفاً اخلاقياً ، ولكن هذا الهدف لايليق بالفن إذ من الضروري أن يكون هدف الفن من طبيعة تكفي ذاتها بذاتها ، وأن يكون هو الغاية في ذاتها (١٠) .

فالدين والأخلاق وغيرهما من القيم التي تكون موجودة في ذاتها اذا ماعبر عنها الفن وشجعها يكون قد عبر عن أهداف سامية ، وعلى الرغم مما تقدم « فما نبحث عنه في الفن كما في الفكر هو الحقيقة ، إن الفن في ظاهره بالذات يجعلنانستشف شيئاً ينجاوز الظاهر ، الفكر ، بينما العالم الحي والمباشر ، البعيد عن ان يمثل تجلياً ضمنياً لفكر ما ، يحجب الفكر تحت ركام من الشوائب... اما الفن فيضعنا .. في حضرة مبدأعلى .(١١) وأخيراً يمكن القول إن الهدف النهائي للفن هو البحث والكشف عن الحقيقة وتمثيل ما يجيش في النفس البشرية تمثيلا عينياً .

ولنظرية هيجل الفنية جوانب أخرى غير التي تتعلق بالفكرة وتجليها الحسي ، فله موقف من الجمال الفني والطبيعي ، وموقف آخر يتعلق بالفنان وعبقريته وخياله، لذلك سنحاول هنا أن نتعرف على هذه النواحي ونتبين مدى التقارب بينه وبين الرومانسية .

---

(١٠) هيغـــل : المصدر السابق ص ٢٤ .

(١١) هيغـــل : المصدر السابق ص ٢٩ .

الطبيعة والفكرة والجمـــال :

ماهي الطبيعة بالنسبة لكل من هيجل والرومانسية ؟ هل هي الحقيقة النهائية أم انها جزء من الحقيقة ؟ هل وراء الطبيعة قوة عظمى تحركها ام ليس هناك ماوراءها ؟

قلنا سابقاً إن المطلق عند هيجل يمثل الحقيقة ، يمثل التطور الأخير للفكرة والطبيعة ليست كل الحقيقة بل هي جزء منها ، هي الشيء المخلوق والصورة الحسية الأولى تتجلى فيها الفكرة ، والطبيعة ليست صنواً معادلا للمطلق ، لأن الروح المطلق يحوى الطبيعة والروح المتناهي ، وعندما نقول عن الروح إنه الفكر فيكون الفكر قد نشأ أولا ثم نشأت الطبيعة بعده ، فالفكر مرحلة أولى تليها الطبيعة كمرحلة ثانية متحركة في زمان ومكان (١٢) .

لذلك يمكن القول « إن الفكرة هي الجمال الكامل في ذاته بينما الطبيعة من هذا المنظور هي الجمال الناقص » (١٣) .

والجمال عند هيجل تعبير عن المطلق ، تعبير عن الحقيقة ، بل الجمال والحقيقة شيء واحد ، فالجميل لابد أن يكون حقيقياً في ذاته ، والجمال فكرة . ولابد للفكرة من أن تحقق ذاتها في الخارج وعلى هذا النحو يتحدد الجمال بانه التجسيد الحسي للفكرة . فالجمال هو « الفكرة المطلقة من حيث أنها موجودة في ذاتها ولذاتها ، هي ايضاً الحق في ذاته ، هي ما يدخل في عداد الروح بصورة عامة ، هي الروحي الكوني ، الروح المطلق » (١٤) .

والجمال عند هيجل هو الجمال الفني وليس الجمال الطبيعي ، ولم يكن تمييز هيجل بينهما قائماً على اعتبارات كمية بل على اعتبار الأسمى . فالجمال الفني أسمى من الجمال الطبيعي لأنه من نتاج الروح ، والروح معبرة عن الحقيقة

---

(١٢) هيغـــل : فكرة الجمال ص ٢٩ .

(١٣) هيغـــل : المصدر السابق ص ٧٨ .

(١٤) هيغـــل : المصدر السابق ص ٨ .

فكل مايمر بها يكون اسمى من غيره والروح أسمى من الطبيعة لذلك كان الجمال الفني أسمى من الجمال الطبيعي ومالجمال الطبيعي إلا انعكاس للروح كما وانه جميل بالنسبة للوعي المدرك (١٥) .

ويقول البعض ان منتجات الفن أدنى من منتجات الطبيعة لأن العمل الفني من صنع الانسان ، والطبيعة من صنع الله ، يرد هيجل قائلا : « ان العمل الفني يدوم وهو من نتاج الروح ، والروح متفوق على الطبيعة لأن الله يتجلى في الروح في شكل وعي ، بينما نتاج الطبيعة قابل للفناء ، والالهي في الطبيعة يخترق وسطاً معيناً وهذا الوسط خارجي حسي وبصفته هذه يكون أدنى من الوعي » (١٦) .

ويقول هيجل ايضاً « نحن نطرق مضمار الفن من وجهة نظر الروح المطلق وبالفعل يعلو مضمار الفن على مضمار الطبيعة ويسمو على مضمار الروح المتناهي .. والجمال الفني لاوجود له في الطبيعة .. كما انه لايندرج في عداد الروح المتناهي .. انما انتماؤه الى دائرة الروح المطلق » (١٧) .

ولكي يظهر الجمال ويمثل أمام حواسنا فانه يحتاج إلى شكل خارجي يعبر عنه ، اي ان الفكرة تبحث هناعن الشكل المناسب لها ، وعندئذ ندخل في رحاب الفن الذي يمثل المرحلة المتسامية في فلسفة هيجل « ان مضمون الفن يتكون من الفكرة الممثلة في شكل عيني وحسي وتكمن مهمة الفن في التوفيق بين هذين الجانبين ، الفكرة وتمثيلها الحسي بتشكيل كلية حرة منهما .. فكرة الجمال الفني لها وظيفة اكثر تحديداً أن تكون واقعاً فردياً » (١٨) . ومن هذا الجانب أي الفكرة وتحققها عينياً يدخل الفن في دائرة الروح المطلق ليكون معبراً عن الحقيقة في شكلها الحسي .

---

(١٥) هيغـــل : المدخل إلى علم الجمال ، ص ٦ ومابعدها .

(١٦) هيغـــل : المصدر السابق ص ٦٦ .

(١٧) هيغـــل : فكرة الجمال ، ص ١١ .

(١٨) هيغـــل : المدخل إلى علم الجمال ، ص ١٢٣ .

وبهذا التعريف وضع هيجل للفن جانبين : أحدهما روحاني عقلاني وهو مبدأ الوحدة والذاتية ، المعنى الروحي الداخلي ، والآخر حسي عيني أي جانب مادي موضوعي متكثر ، جمعهما في وحدة تامة ووضع شرطاً لهذه الوحدة هو أن يكون المضمون صالحاً للتمثيل فنيا وأن يكون عينياً وحسياً ولايشتمل على شيء مجرد (١٩) .

فالعمل الفني لاينقسم إلى جانب فكري محض ولا إلى جانب حسي محض بل يجب على العمل الفني أن يتناول الجانبيين في وحدة متكاملة يتجلى فيها الروح الذي يجعل مضمونه واعياً بواسطة عناصر حسية .

إذا انتقلنا إلى الرومانسية فيمكن تفصيل القول بالرجوع إلى الأفكار التي كانت تسود القرن السابع عشر ومدى تقبل الرومانسية لتلك الأفكار أو معارضتها .

كانت فكرة الآلية مسيطرة على أذهان المفكرين آنذاك ، فقد اعتقد ديكارت واتباعه بأن العالم عبارة عن آلة خلقها الله في البدء واصبح يسير وفق قوانين موضوعية . ولكن هذا الموقف تغير في القرن التاسع عشر بظهور الرومانسية التي أسبغت على الطبيعة وجوداً ذاتياً واعتبرتها قوة حية ذات روح تستجيب لنداء الانسان « لم يعد العالم آلة خرساء كما اعتقد العقليون بل هو قوة حية ذات روح تستجيب لندءا الانسان ، والرومانسيون يجدون الحكمة الصادقة في الاندماج بالطبيعة .. إن الحقيقة لاتكمن في العلم بل في رؤيا الشاعر :

نبضة من غابة خضراء
قد تنبئك عن الانسان
وعن الخير والشر
أكثر مما يستطيع أن ينبئك به جميع الحكماء
لذيذة المعرفة التي تمنحها الطبيعة
أما عقلنا المتطفل

---

(١٩) هيغل : المصدر السابق ، ١٢٤ .

فيشوه الأشكال الجميلة للاشياء

إننا نقتل لكي نشرح » (٢٠)

رلكثرة استغراق الرومانسيين في الطبيعة وارتمائهم في أحضانها كثرت مراقبتهم لها مما أدى إلى ادراك طبيعتها المتغيرة المتحركة المقابلة لتغير وتطور الطبيعة البشرية ومن هنا نشأ التمازج بين الطبيعة ونفس الفنان وظهر هذا التمازج واضحاً في الشعر الرومانسي (٢١) .

يقول راندال : « اتفق الرومانسيون جميعاً في شعورهم بأن وراء الظواهر ارادة عظيمة أو قوة أو شخصية فوق الشخصية وقد لايكون من غير المناسب اطلاق اسم الله عليها ، وإليها يمكن أن توجه المشاعر الدينية ولكن الله في نظرهم كائن مختلف تماماً عن الله في نظر اصحاب المذهب العقلي في القرن الثامن عشر فاعتقادهم بان العالم ليس آلة ولكنه حي جعلهم يضيفون إلى ذلك بان الله هو روح العالم وحياته وتؤلف جميع الأشياء جزءاً من حياة الاله الشاملة هذه ، ويعتبر الانسان أسمى هذه الأشياء كلها تعبيراً عن هذه الحياة ، فالرومانسية تفسر حياة الكون من خلال النفس البشرية »(٢٢) .

فما أقرب هذا القول من أقوال هيجل في المطلق الذي هو فكر العالم إلا ان الرومانسيين لايثير اهتمامهم كل ما في الطبيعة انما هناك بعض اشياء منها تستهويهم فالخريف مثلا من بين الفصول المفضلة عندهم لأن مناظرة توحي بالذبول وتعبر عن الحزن ، والليل يعبر عن اللا نهاية ويوحي بالغموض والأسرار وظلمته تدعو الى الانطلاق والتحرر ، والعواصف الجوية تثير اهتمام الرومانسيين وكذلك امواج البحر المترامية وبكلمة أخرى ان الرومانسيين يعجبون بكل مايثير قوة العواطف

---

(٢٠) راندال ، جون هرمان : تكوين العقل الحديث ، ترجمة جورج طعمة ، ج ٢ ، ص ٤٦ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٦ .

(٢١) غنيمي ، غلا ل : الرومانتيكية ، ص ٤٠٩ ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .

(٢٢) راندال ، جون هرمان : ص ٥١ ومابعدها .

والانفعالات ويوحي بالغموض واللانهاية . والطبيعة ملجأ الرومانسي حيث يستسلم لمشاعره ويستجيب لمناظرها الحزينة ويحس بصداها في ثنايا خواطره وانفعالاته لما يربطه بها من صلات وثيقة . فالطبيعة اذن ليست مكاناً لحل المشاكـــــل واستخلاص الحجج بل هي مكان للهروب من الواقع الحزين الناقص (٢٣) .

الحقيقة التي ينشدها الرومانسي ليست هي الحقيقة التي تعارف الناس عليها ، هي ليست الحقيقة التي أقرها العقل والمنطق ، إن الحقيقة التي ينشدها هي في ذاته ، في خياله ، في عاطفته تظهر في ثوب جديد . يقول كولريدج » بان الحقيقة العميقة لايصل اليها الا ذو العاطفة العميقة وكل حقيقة نوع من الوحي » (٢٤) .

الجمال عند الكلاسيكيين هو انعكاس الحقيقة . . يعتمد على نسب معينة ومقاييس ثابتة ، فهو موضوعي وبالتالي فالحقيقة موضوعية . أما عند الرومانسيين فهو نسبي ، فردي ، عاطفي ، ذاتي ، لذلك كانت الحقيقة عندهم لاتمتلك الوضوح التام ، تبقى مشوبة بالغموض والضبابية ، هي حقيقة فنية ولكنها الأعلى والأكمل.. الحقيقة لايمكن أن تكون إلا روحية فهي عند « هردر » مثلاً مبنية على المشاعر والايمان لا على العقـل .

ويركز الرومانسي على المضمون لاعلى الشكل ، فالمضمون اذا كان معبراً عن عواطف وانفعالات انسانية تمثل رسالة انسانية فهو فكرة يتجاوب معها الآخرون ، لايضيرها أي شكل نظهر به بل المهم انها تعبر عن ذاتيها تعبر عن هدفها الانساني « فلو وصف منظر من المناظر بأنه لايثير الاعجاب ولكن قصد من وراء وصفه الى غاية انسانية نافعة كان القصد جميلا ولو كان المنظر في ذاته قبيحاً » (٢٥) .

---

(٢٣) غنيمي ، هلال : ص ١٧٣ ومابعدها .

(٢٤) غنيمي : المصدر السابق ص ٥٥ .

(٢٥) غنيمـي : المصدر السابق ص ٢٠٤ .

الحقيقة عند هيجل تعني المطلق أما الطبيعة والانسان فأجزاء فيها والغاية التي وضعها نصب عينيه الوصول إلى المطلق ، أما الغاية الرومانسية فالكشف عما وراء الظواهر من ارادة عظيمة أو قوة عظيمة . والاختلاف الجوهري بين هيجل والرومانسية قائم على الوسيلة التي يستخدمها كل منهما للوصول إلى الحقيقة . إن طريق هيجل إلى المطلق طريق راسخ واضح المعالم لأنه يستعين بالمفاهيم الواضحة المحددة ، ويعتمد العقل وسيلة للوصول إلى الحقيقة ، وهي عنده واضحة لأنها تعبر عن المطلق ، عن المرحلة النهائية التي يصل اليها تطور العقل ، غير انه لابد لنا من الاشارة إلى ان الفنان عند هيجل لايصل إلى مستوى الفيلسوف في التعبير عن الحقيقة لأنه يعبر عنها بشكلها الحسي بينما الفيلسوف يصل إلى أعلى مستويات التعبير عن الحقيقة لاستعانته بالمفاهيم العقلية الواضحة ولتعامله مع الأفكار .

أما الرومانسي فهو يثق بالحدس والروح الملهمة ولايثق بالمنطق والعقل التحليلي ، ويعتبر الحدس ينبوع المعرفة النهائية ، واليقين المباشر الحاصل من الرؤيا الداخلية أعظم من البرهان المنطقي وأشد يقيناً (٢٦) .

وعلى الرغم من وجود هذا الاختلاف بينهما قهتاك نقاط التقاء بين الأثنين فكلاهما يؤكدان على دور الفكرة في العمل الفني ، فهيجل يركز على الفكرة التي تعبر عن الباطن ، عن المثالي وبالأحرى عن المطلق ، هذه الفكرة متطورة تبحث دائماً عن شكل يناسبها . وآخر مرحلة تصل اليها هي المرحلة التي تكون فيها على ائتلاف مع ذاتها عند ذلك تتحرر من الشكل الحسي الخارجي لتعبر عن ذاتيتها . والرومانسي أيضاً تؤكد على الفكرة ، على المضمون ولاتضع للشكل أهمية رئيسية ، إلا إن المشكلة التي تعاني منها الرومانسية هي في « كيفية جعل المثالي واقعياً في اعمال الرومانسيين وكيفية التعبير عن الداخلي المجرد بالخارجي الملموس لذلك لجأت إلى الصور الرمزية للتعبير عن الفائق على الواقعي » (٢٧) . وهذا هو

---

(٢٦) راندال ، جون هرمان : المصدر السابق ص ٤٤ .

(٢٧) فرست ، ليليان : « موسوعة المصطلح النقدي – الرومانسية ، ترجمة د . عبد الواحد لؤلؤة ص ٥٢ ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٨ .

نفس مايعانيه هيجل ، فمحاولته التوفيق بين الأضداد هي عينها محاولة الرومانسية التوفيق بين المضمون كفكرة روحانية والشكل كموضوع حسي عيني هو عينه التوفيق بين المثالي والواقعي فكلاهما يؤمنان بتوافق الأضداد والتطلع إلى الوحدة بين المتناقضات . والوحدة حقيقة يكشف عنها المنطق عند هيجل بينما الوحدة حقيقة يكشف عنها الحدس والوجدان عند الرومانسية (٢٨) .

ومفهوم التطور والنمو والاستمرارية في الطبيعة ينعكس بدوره على مفهوم التطور والنمو في التاريخ البشري عند الاثنين ، فالكون والطبيعة والانسان يقر بها كل من هيجل والرومانسية ،والكون كل مترابط متماسك متطور يسعى لغاية .. فاذا كان مفهوم التطور والوحدة ينطبق على الطبيعة فأحرى به أن ينطبق على الطبيعة البشريةلذا أصبح للتاريخ البشري أهمية كبيرةعند كل من هيجل والرومانسية ، فلكي نفهم فكرة أو عقيدة مالابد أن ندرس نموها وتطورها عبر التاريخ الحضاري الانساني (٢٩) .

الفنان والذاتيـــــة :

للفنان و ذاتيته مكانة خاصة عند كل من هيجل و الرو مانسية ، فهيجل يعتبر الفن وسيلة الانسان للتعبير عن ذاتيته أو بالأحرى للتعبير عن وعيه لذاته ، ولأن الفن يعبر عن العلاقة القائمة بين الحس الظاهر وحياة الانسان الداخلية أو مايسميه هيجل الوعي أوالروح فان الفنان عند خلقه لأعماله الفنية لايخلق الأشكال والأصوات الحسية لذاتها وكما توجد في الواقع وانما تلبية لاهتمامات روحية متسامية فهي تنبعث من أعماق الوعي ، لذلك كان النشاط الفني نشاطاً روحياً لايتعامل مع افكار مجردة بل يجب أن يتضمن جانباً حسياً مباشراً (٣٠) .

---

(٢٨) امام ، امام عبد الفتاح : المنهج الجدلي عند هيجل ، ص ٩٣ وما بعدها ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

(٢٩) امام ، امام عبد الفتاح : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣٠) هيغـــل : المدخل إلى علم الجمال ، ص ٧٥ ،

يمكن القول ان العمل الفني باعتباره وسيلة التعبير الذاتية يتضمن جانبين ، الأول وعي الفنان لخلجات نفسه وعواطفه ومشاعره باعتبارها أشياء ذاتية داخلية ، والثاني العلاقات العملية التي يقيمها الفنان مع العالم الخارجي ، فمن هذه العلاقات تتولد الحاجة الى التعبير عن العالم ، وباسباغ الذاتية عليه باعتباره جزءاً من هذا العالم ، وهو يفعل ذلك لكي يتعرف على ذاته في شكل الأشياء ، ولكي يتمتع بها كما لو انها واقع خارجي (٣١) .

« تنطوي الحاجة العامة إلى الفن اذن على جانب عقلاني يتمثل في ان الانسان ، بوصفه وعيا ، يظهر ذاته ، يزدوج ، يعرض نفسه لتأمله الخاص ولتأمل الآخرين ، وبالعمل الفني يسعي الانسان – وهو صانعه – إلى التعبير عن وعيه لذاته ، وتلك ضرورة كبرى تتبع من الطابع العقلاني للانسان الذي هو مصدر الفن وعلته مثلما هو مصدر كل نشاط وكل معرفة وعلتهما (٣٢) .

أما الفنان الرومانسي فقد تأثر تأثراً كبيراً بفلسفة « فخته » الذاتية حيث اعتبر الفرد وحدة المجتمع السليم وممثلا للارادة العامة وجعل المثل الاعلى للانسان في نمو امكاناته الفذة ونمو فرديته وشخصيته . والفنان الرومانسي شخص يتمتع بحساسية مرهفة وحدس وبصيرة استثنائية نفاذة نحو الحقيقة اللانهائية ، وهو يرتفع إلى مصاف الأبطال بل إلى مصاف الآلهة إذ يعتبر نفسه تجسيداً و تجلياً للروح المطلق كما في المثالية الألمانية ، والعلاقة الاستثنائية القائمة بين الحقيقة والفضيلة في موهبته أو جدت متعة خاصة عند كل من الفلاسفة والفنانين على حد سواء (٣٣) .

---

(٣١) هيغـــل : المصدر السابق ص ٦٨ .

(٣٢) هيغـــل : المصدر السابق ص ٦٩ .

(٣٣) فرست ، ليليان : ص ٥٢ .

(٣٤) Osborne, Harold, Aesthetico and art Theory, P. 133, London, 1978

وتأكيد الفنان الرومانسي على الذاتية خلق نوعاً من عدم التوازن بين قواه النفسيه وتطلعه إلى مالايمكن تحقيقه في عالم السياسة والأدب والفن مما جعل حياته تتصف بالقلق والحزن والغربة (٣٥) .

نرى مما تقدم أن كلا من هيجل والرومانسية يؤكد على ذاتية الفنان إلا ان ذاتية فنان هيجل وعي وعقل بينما ذاتية الرومانسية عاطفة ووجدان .

الفنان والعبقريـــة :

ظهر مفهوم العبقرية في اللغة الانكليزية خلال القرن السادس عشر وكانت الكلمة مرادفة لمعنى موهبة طبيعية ، والعبقرية من الصفات المميزة لعصر الرومانسية ، وهي لاتعني اتباع قواعد قائمة أو مطابقة تقاليد موروثة بل تعني وضع قواعد جديدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفعالية الفنية . ومن هنا يمكن القول بأن العبقرية اساسها الابداع والخلق والابتكار ، فمن لايمتلك خاصية الابداع لايمكن أن يتصف بالعبقرية ولايكون فناناً أصيلا ، لذلك ينظر إلى الفنون الجميلة جميعها على انها نتاج للعبقرية .

ولو تتبعنا فكرة العبقرية في العصر الحديث لو جدناها من وضع الفيلسوف الألماني « عما نوئيل كانت » ففي كتابه « نقد الحكم » حدد معنى العبقرية بأنها موهبة طبيعية أو أستعداد أو قابلية عقلية فطرية تعطي القاعدة للفن وهي تتصف بالاصالة والابداع ، فالفن الجميل يكون ممكناً فقط اذا كان من انتاج العبقرية (٣٦)

ويضيف الكسندر جيرارد بان العبقرية هي القدرة على الابتكار والتي تعني ان الشخص العبقرى مؤهل لعمل اختراعات في العلم أو انتاج أعمال فنية مبتكرة ، فالصلة وثيقة بين العبقرية والابداع والخلق (٣٧) .

---

(٣٥) غنيمي ، هلال : ص ٥٥ .

(٣٦) Osborne, Harold, P. 133

(٣٧) Ibid, P. 141

والعبقرية الرومانسية بالاضافة إلى انها موهبة فطرية فهي ترتبط بالالهام أيضاً ، وتعود فكرة الالهام إلى زمن الأليادة والأوديسة التي تبدأ بالدعاء إلى ربات الفنون – بنات الاله زوس – اللواتي كن يلهمن الفنانين . فالالهام هنا يعتبر قوة الهية تمكن الفرد من القيام باعماله الفنية أي أن الالهام – منذ العصور الكلاسيكية القديمة – يعتبر قوة خارجية تجتاح الفنان ، وشكل من أشكال الامتلاك ، ولكن في عصر الروماسية تغير مفهوم الالهام ، فلم يعد الفنان مجرد اداة موصلة لقوى خارجية بل أصبح مصدر هذه القوى ، إذ ان الالهام موجود في داخله في الجزء الجزء اللاواعي من كيانه ، فبدلا من أن يكون وسيلة منفعلة أو صوتاً لقوة غريبة أصبح هو والحقيقة شيئاً واحداً (٣٨) .

لقد استخدمت كلمة « اللاوعي » في الادب الرومانسي قبل ان تأخذ شكلها السيكولوجي فقد استعملت من قبل « وردزورث » و « كولريدج » و « كارليل » و « بليك » الذي ذكر بان اشعاره كتبت له بواسطة روح آلهية ، وكذلك « كولريدج في قصيدته كوبلاكان. ويعتقد «وردزورث» بان الالهام عبارة عن قوة روحية صوفية أو قوى الطبيعة مجسدة تفجر الشعر في العقل ، أما كاركيل فقد ميز بين الشعر الطبيعي والشعر الاصطناعي فالأول هو اللاوعي والثاني هو الوعي ، وان اللاوعي علامة الخلق بينما الوعي علامة الصنعة (٤٠) .

أما هيجل فله مع العبقرية موقف مشابه بعض الشبه لموقف الرومانسية فهو يعتبرها موهبة طبيعية ، ويعتبر الفن خلقاً وابداعاً من قبل الموهبة . وعلى الرغم من اعترافه بان العبقرية موهبة طبيعية إلا انه يضع لها شروطاً منها احتواؤها على فكر منظم ومثقف اضافة إلى تدريب وممارسة ، فقي بعض الفنون تعتمد العبقرية على التقنية والخبرة والممارسة كفن العمارة والنحت فهما يحتاجان إلى مهارة يدوية لتطويع المادة المستخدمة في انتاجهما الفني ، وحتى الشعر ايضاً يحتاج إلى معرفة بالقوافي

---

(٣٨) Ibid, P. 139

(٣٩) Ibid, P. 138

(٤٠) Ibid, P. 139

مثلا . وهناك فنون أخرى ليست بحاجة إلى اساس اختباري واسع كالموسيقى مثلا لهذا تتجلى الموهبة فيها على نحو مبكر (٤١) .

فالعبقرية عند هيجل ليست استرخاء واستسلاماً لالهام من أجل انتاج أعمال فنية انما هي موهبة مع فكر منظم وممارسة عملية « والحق ان الفكر الذي لايعوزه التصميم لايتكشف خصباً ومعطاء إلا بعد تثقيفه بدراسة طويلة ومتبحرة»(٤٢) . وبالاضافة إلى ماتقدم ينبغي للفنان أن يكون ذا مقدرة فائقة بمعرفة العالم الخارجي والداخلي ، وأن يسبر أغوار النفس البشرية ليكون على علم بها ، لأن هذه المعرفة لها تأثير كبير على ابداعاته الفنية .

ولقد سخر هيجل من العبقرية المقرونة بالقدرة الالهية ـ العبقرية الرومانسية قائلا : « من يأخذ بوجهة النظر هذه عن النبوغ الالهي يرى الى الناس من أعلى الى أسفل ويجدهم محدودين ومسطحين ، لأنهم يبقون متعلقين بحيال الحق والأخلاق وينزلون هذه السفاسف منزلة الأشياء الجوهرية ، على هذه الشاكلة يمكن للفرد أن يحيا حياة فنان كهذه ، أن يقيم علاقات مع آخرين .. لكنه يرتأي بصفته نابغاً وبالنظر إلى الواقع الذي يعزوه إلى نفسه وبالنظر إلى نشاطه الخاص وبالقياس إلى العام بما هو كذلك يرتأي أن هذه العلاقات جميعاً غير ذات وزن ويعاملها من عالي سخريتـه » (٤٣) .

الفنان والخيـــال :

يميز هيجل بين الخيال المبدع للفن والخيال العادي ، فالخيال المبدع هو الخيال الذي ينتج الاعمال الفنية ، و « التخيل هو الذي يضفي على هذه المضامين أشكالا حسية .. الخيال الخلاق في الفن أو التخيل هو خيال روح عظيم ونفس

---

(٤١) هيغـــل : المدخل إلى علم الجمال ، ص ٦٤ ومابعدها .

(٤٢) هيغـــل : المصدر السابق ص ٦٥ .

(٤٣) هيغـــل : المصدر السابق ص ١١٧ .

عظيمة ، خيال يعقل وينجب تمثيلا واشكالا مسبغاً على أعمق الاهتمامات الانسانية واكثرها عمومية تعبيراً مجازياً حسياً محدداً واضحاً » (٤٤) .

أما الخيال الرومانسي فهو ميزة من مميزات عصر الرومانسية له مفهوم تعبيري ، ويعتبر وسيلة الفنان للنفاذ إلى الحقيقة اللانهائية .والايمان بالخيال كان كان جزءاً من الأيمان بالفردية والذاتية السائدة آنذاك . ومنذ عصر النهضة أصبحت البراعة الفنية مرادفة للخيال ، وغالباً مايقال عن العمل الفني انه خيالي كي ينال الاستحسان ، واحلام الفنان وآماله تنطلق حرة في عالم الخيال لذلك كان هذاالعالم أحب الى الرومانسي من عالمه الواقعي (٤٥) .

وليس من الضروري أن يكون الخيال قوة لتشكيل صورة ذهنية بل يمكن أن يكون قوة عقلية لصياغة التجربة بشكل جديد من أجل خلق وضعية خيالية ، وبشعور عاطفي معبر عن أماني الآخرين .

لم يكن للكلاسيكية القديمة نظرية في الخيال بهذا المعنى ، ولم تشهد أي قوى الخيال والانتاج الفني ماعدا تخيلات عقلية يمكن أن تساعد الفرد في نقل حي عن وضعية ما إلى الآخرين ، فلقد تحدث افلاطون عن الخيال مثلا وربطه بنظريته في المعرفة ، إلا انه وضعه في أدنى مراتب الملكات العقلية بينما وضع العقل في المرتبة العليا (٤٦) .

والتطلع إلى المجهول يجعل الرومانسي يفضل عالم الخيال على عالم الواقع ، لذا يندفع نحو احضان الأبدية ويبتعد عن الحاضر محلقاً بخياله نحو الماضي البعيد والمستقبل المرتقب ، وقد كتب نوفاليس يقول : «لم أعلم أن الخيال مرتبط ارتباطاً وثيقاً

---

(٤٤) هيغـــل : المصدر السابق ص ٨٠ ومابعدها .

(٤٥) Osborne, Harold, p. 136.

(٤٦) Ibid, P. 143.